على الغلاف

لا تكاد تخلو وسائل الإعلام الغربية في الشهور الأخيرة من تقرير عن «مقاتلي تنظيم داعش» ومصيرهم الغامض. يأتي ذلك فيما تنهمك أجهزة الاستخبارات الغربية في حصاد عدد من أخطر المطلوبين الذين لم يقتلوا في الحرب السورية، وبموجب عمل منظم انطلق قبل عامين، وأخذ على عاتقه اصطياد «الجهاديين» الأجانب، وإعادة تدوير الجهاديين المحليين لخدمة مرحلة ما بعد «داعش»

«تركة داعش» في سوريا

«جهاد» الغد ترعاه أيد أمينة!

رحلة انحدار التنظيم لم تبدأ بشكل فعلي إلا مع توافق جميع اللاعبين مجدداً على أن «الساعة دقت» (أ ف ب)

صهيب عنجريني

قبل يومين احتفت وسائل الإعلام الفرنسيّة بالقبض على «الجهاديّة» الفرنسيّة إيميلي كونينغ في سوريا على يد «قوات سوريا الديمقراطيّة». كونينغ، التي وصفتها صحيفة «لو فيغارو» بـ«الجهادية المطلوبة رقم 1» لم تكن باكورة الجهاديين الفرنسيين المقبوض عليهم عقب انهيار تنظيم «داعش». كانت «قسد» نفسها قد أعلنت في الأسبوع الأخير من العام الماضي القبض على عدد من الفرنسيين: رومين غارنييه، توماس كولانج، وتوماس بارنوين. ووصف الأخير بدوره بـ«الجهادي المطلوب رقم 1» على خلفيّة علاقته بالجهادي الفرنسي الشهير محمد مراح (منفذ اعتداء تولوز 2012). قبلها بثلاثة أشهر تسلّمت فرنسا أيضاً واحداً من «مجاهديها» في سوريا، وهو جوناثان جيفروي (أبو إبراهيم الفرنسي)، لكنّ «قسد» لم تكن طرفاً في عمليّة التسليم تلك، بل عدوّتها اللّدود أنقرة. ولا تمثل عمليات التسليم المذكورة سوى نقطة صغيرة في بحر عمليات كثيرة مماثلة نُفِّذت بعيداً عن الأضواء منذ عام 2016، وزادت وتيرتُها كثيراً في أعقاب الغزو التركي للشمال السوري تحت مسمى «درع الفرات». ورغم أن ماكينة الإعلام الغربيّة قد التفتت أخيراً إلى ضخ تقارير متتالية عن «مستقبل داعش» وعن مصير مقاتليه الذين «اختفوا»، غير أن الاهتمام الاستخباري بهذا الملف كان على رأس أولويّات الولايات المتحدة، وشركائها في «التحالف الدولي» منذ سنتين. وأنشأت واشنطن برنامجاً سريّاً خاصّاً متفرّعاً عن برامج «دعم المعارضة المعتدلة» مهمّته الأساسيّة العمل على تشجيع «الجهاديين» الأجانب المنضوين في صفوف «داعش» على الانشقاق عن التنظيم بصورة منظّمة تضمن استقطاب المنشقّين، لا عشوائيّة تؤدّي إلى تسربهم في اتجاهات شتّى. وكانت «الأخبار» قد نشرت قبل عام كامل تحقيقاً عن «مراكز الاستقطاب» العاملة في كنف هذا البرنامج («الأخبار»، العدد 3075). وبقي عمل المراكز المذكورة بعيداً عن التداول الإعلامي، باستثناء إشارات عابرة في سياق تقارير مختصرة، قبل أن تنشر وكالة الصحافة الفرنسية منتصف الشهر الماضي تقريراً مفصّلاً باللغة الفرنسيّة عن أحد تلك المراكز. ولا يُمثّل القبض على «الجهاديين» الأجانب سوى جانب من عمل «مراكز الاستقطاب»، أما الجانب الأخطر فهو السعي إلى إعادة تدوير «الجهاديين» المحليين (في سوريا على وجه الخصوص) وتجنيدهم تحت رايات أخرى غير راية «داعش». وأتاحت المعارك الكبرى التي فُتحت ضدّ «داعش» على غير جبهة المجال أمام تحوّل حصاد عمليات الاستقطاب من العشرات أوّل الأمر، إلى المئات في وقت لاحق. وفتحت «درع الفرات» التركيّة الباب أمام اتفاقات سريّة مع قيادات التنظيم المتطرف لتسليم مدن ومناطق في مقابل ضمان «عبور آمن» للراغبين من التنظيم بمواصلة القتال على جبهات أخرى، و«ملاذ آمن» للراغبين في نقل البندقية إلى كتف أخرى («الأخبار»، العدد 3112). ولاحقاً حذت «قوات سوريا الديمقراطيّة» حذو أنقرة وتحت إشراف الولايات المتحدة إبّان معركة مدينة الرقة. فيما كانت دمشق قد سهّلت بدورها اتفاقاً قضى بانسحاب مقاتلي «داعش» من معركة «فجر الجرود» إلى البوكمال في ريف دير الزور الجنوبي الغربي. ومن المرجّح أن اتفاقات أخرى قد عُقدت بعيداً عن الضوء بين التنظيم ومختلف الجهات التي حاربته في خلال العام الأخير على وجه الخصوص. ويبدو بديهيّاً أن تلك الاتفاقات قد أتاحت الفرصة أمام تسرّب جزء من مقاتلي «داعش» بشكل منظّم. فيما أتاحت المعارك التي طال أمُدها في بعض المدن والبلدات الفرصة أمام المئات من منتسبي التنظيم لعقد اتفاقات مع مُحاصريه لتهريبهم خارج نطاقات الحصارات المضروبة. كذلك أفلح المئات من المقاتلين المحليين في الهروب بفضل تكتيك «الذوبان» الذي سبق لـ«جهاديي القاعدة» أن انتهجوه عقب اعتداءات 11 أيلول، وفرّوا بفضله من

«متاهة» الأرقام

كانت متاهة الأرقام واحدة من أخطر «الألعاب» التي مورست على امتداد الحرب السورية، ولا سيّما في ما يخصّ أعداد «الجهاديين». وحفلت الأرقام التي جرى تداولها بمبالغات هائلة، سواء على ألسن بعض المسؤولين، أو في سياق تقارير إعلاميّة شتّى. ولعبت تلك المبالغات دوراً في تضخيم قدرات «داعش» إلى حدٍّ منحَه صورة «التنظيم الذي لا يُقهر». ومن بين أكثر المبالغات إثارة للدهشة تبرز مزاعم الولايات المتحدة أنها قتلت بحلول تموز 2016 ما يقارب 45000 مقاتل من «داعش»، ويبدو هذا الرقم كاريكاتوريّاً إذا ما قورن بتقديرات الاستخبارات الأميركيّة في تموز 2015 لعديد مقاتلي التنظيم بـ31500 مقاتل فقط.

عقيدة «الدولة» في العراق... باقية

نهاية عام 2017، أعلن رئيس الوزراء العراقي حيدر العبادي نصر بلاده «النهائي» على تنظيم «داعش». هذا الانتصار جاء بعد سيطرة القوات العراقية، بمختلف صنوفها، على طول جغرافيا للبلاد، خاصّةً مع وصول قوات «الحشد الشعبي» إلى الحدود العراقية ـ السورية، وسيطرتها على معظم الخطّ الحدودي هناك، كاسرةً بذلك «خطوطاً حمراء» أميركية رافضة لمثل هذه الخطوة. تداعيات وصول تلك القوات إلى «المنطقة المحظورة» أميركيّاً، ودورها الفعّال في تأمين خط «محور المقاومة» من طهران إلى بغداد وصولاً إلى بيروت، مروراً بدمشق، لا يزال سارياً في الأروقة السياسية العراقية، ذلك أن بعض القوى تضغط باتجاه انسحاب تلك القوّات لأسباب عدّة، استناداً إلى موقف الأميركيّ ـ الإسرائيلي ـ السعودي الرافض لوجود «حلفاء إيران» غربي البلاد، إلى جانب بعض الخطابات الانتخابية الرافضة لمثل هذا الوجود هناك، للحفاظ على «اقتراع حر».

سلوك قيادة «الحشد» في التعامل مع هذه المعضلة، يشي بأنها غير آبهةٍ لنقاش سياسي «عقيم»، خاصّةً أن قرارها النهائي مردّه العبادي، وإن كان في بعض جوانبه متآلفاً مع التوجهات الأميركية، وغير قادرٍ على الخروج عن طوعها. هذا «الأخذ والرد»، الذي لا يزال قائماً، يساهم في بعض جوانبه بخلق هامشٍ للمسلحين، يسمح لهم بمناورةٍ تقود إلى مواجهةٍ مع القوات العاملة في غرب البلاد، فتكون الأخيرة ضحيّة للتجاذبات، في وقتٍ يستدعي استنزاف القوات معالجةً دقيقة لهذه المعضلة.

> بروز «أصحاب الرايات البيضاء» في محيط قضاء طوزخورماتو

وبين الانتصار على «داعش» والقضاء عليه، والحذر من عودته مجدّداً، ثمّة من يقول إن التنظيم قد انسحب إلى الداخل السوري، فيما يصرّ آخرون على أن المسلحين لا يزالون ضمن الأراضي العراقية على شكل مجموعات «غير مترابطة» تؤدّي مهمّات أمنية ـ عسكرية، في عودةٍ إلى أسلوب التنظيم قبل حزيران 2014، تاريخ إعلان «الخلافة».

عمليات إرهابية لا تزال تهزّ «بلاد الرافدين» ذات أشكال مختلفة (تفجير انتحاري، سيارةً مفخخة، اغتيال، غزوة...)، تحمل رسائل عدّة، ذلك إن قوربت من ناحية مكانها وزمانها من جهة، والمستهدف والأسلوب من جهةٍ أخرى. وإذا وضعت تلك العمليات ـ منذ الحديث عن اقتراب سقوط التنظيم (صيف 2017) ـ على شريطٍ زمني لكان أخطر تلك العمليات وأكثرها دلالةً تفجير «مطعم فدك»، في محافظة ذي قار جنوبي البلاد، الذي أدى إلى مقتل وجرح عشرات المدنيين والعسكريين. رسالةٌ أراد منها التنظيم تبيان قدرته على خرق الحواجز الأمنية، والوصول إلى أي نقطةٍ يريدها جنوبي البلاد، بوصفها منطقة «آمنة».

ولا يمكن قراءة ذلك التفجير بمعزل عن العمليات الأخرى، التي باتت بشكل أسبوعي تضرب مختلف أنحاء البلاد، إذ استفاد المسلحون من أزمة بغداد ـ أربيل، على سبيل المثال، لتنفيذ عمليةٍ في أحد أسواق